المحاضرة11: النزعة الصوفية في النص الشعري المعاصر

تمهيد:

إذا ذكر التصوف بلسان عربي اتجهت الأفكار بصورة مباشرة إلى النزعة الصوفية في الإسلام بكل تاريخها القديمو الحديث ومبادئها وفرقها وأعلامها، بيد أن التصوف الذي نعنيه في هذا البحث هو التصوف بمعناه العام من حيث هو استبطان منظم لتجربة روحية، ووجهة نظر خاصة تحدد موقف الإنسان من الوجود ومن نفسه ومن العالم.

وهو بهذا ظاهرة إنسانية عامة، ليست محدودة بدين أو حدود مادية زمانية أو مكانية، ومن ثم يمكن القول إن التجربة الصوفية قد تنشأ بعيدا عن الدين، ولا ينفي هذا المفهوم الإنساني العام للصوفية وجود تأثير المفهوم الإسلامي الخاص في الشعر العربي الحديث و المعاصر، بل وجوده في الاتجاه الصوفي العربي بصفة عامة.[i]

أولا - الشعر والتصوف.

لم يكن الشعر بلغة من اللغات أو في زمن من الأزمان بعيدا في بعض ما يخوض فيه الشعراء عن المفهوم الإنساني العام للتصوف بوصفه استبطانا منظما لتجربة روحية، و محاولة للكشف عن الحقيقة والتجاوز عن الوجود الفعلي للأشياء، ثم إن الشعر لا يصدر عن جمود وطبيعة ثابتة، إنه تغير مستمر دائب ومعاناة، والتصوف كذلك اضطراب فإذا وقع السكون فلا تصوف كما يقول صاحب طبقات الصوفية، بل إننا إذا نظرنا إلى أحوال الصوفية كالمراقبة والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين وجدنا أنها تكاد تكون أحوال الشاعر التي يصدر عنها إلهامه.

ثم إن التأمل بالوجدان والقلب وسيلة مهمة عند الشاعر والمتصوف على السواء، ولهذا اهتم بعض الشعراء العرب المعاصرين بإيجاد رابطة عضوية بين الشعر والتصوف[ii]، وإن كانت الصلةبينهما وثيقة بشكل كبير، كما أن علاقة التصوف بالفلسفة هي علاقة قربى؛ بل هي علاقة سببية، فكل منها بحاجة لأنفاس الآخر فغايتهما واحدة، وهي البحث عن الحقيقة المطلقة.

ويتجاوز الشعر التصوف الفلسفي في كونه يسعى إلى صوغ تجربة مع المطلق، فهو لا يكتفي بمجرد البحث والتقصي، لأنه معرفة ذوقية وحدسية تتجاوز مقاييس الفلسفة ومنطلقاتها التحليلية وهناك من يرى أن الصوفية هي أقرب الفلسفات إلى الشعر، لأنها سعي متواصل لكشف الغامض والمبهم، والتعبير عن عوالم النفس الداخلية والجمال المطلق بأساليب رمزية لا تحدها حدود العقل ولا تطالها المقاييس الضيقة [iii].

ثم إن النزعة الصوفية في الشعر العربي المعاصر لا ترتبط ارتباطا عضويا بمذهب أدبي بعينه، فقد توجد في الكلاسيكية بمفهوم، وفي الرومانسية بمفهوم آخر، إذ تعني عندهم « جهد للهروب من الواقع وسوداوية عاطفية وتشوق مبهم »[iv]، والثوريون الواقعيون لهم صوفيتهم إذ لما كانت « الصوفية هدما كليا وتحطيما كاملا لكل ما

يشمل الواقع الإنساني بوصفة ممارسة يومية تخلو من أي تعبير وجداني فقد شملت كل معاني الثورة والتمرد والعصيان»[v].

والوجودية لها تصوفها الذي يعني السعي نحو الوجود المطلق، والسريالية لها تصوفها، ذلك أن السريالي « يغوص في لاوعيه لمساءلة ذاته مقصيا بذلك آليات العقل ممتلئا بنشوة الفرح الماورائي بعيدا عن عالمه الأرضي، احتفاء بالعالم الفني هناك حيث تنسجم الذات مع عالمها، وتسكن إليه في ألفة ».[vi]

وعلى ضوء هذه المفاهيم وغيرها راح كثير من الدارسين المعاصرين يجعلون من الرائين لحجب الأزمنة الآتية متصوفة، لأنه ومن « خلال الرؤية الشعرية والحلم الواعي يرى متصوف عصرنا الواقع الكائن والواقع الممكن، وهو بذلك يخترق حجاب الزمن الآتي إلى الزمن المستقبل فيؤدي بالنسبة لعصره دور القديم، دور النبوة »[vii]، ولقد أدى هذا الدور ثلة من الشعراء العرب المعاصرين ممن تشبعوا بثقافات فرضت عليهم نوعا من التمرد الرافض لكل شيء من أجل تغيير الواقع بالكلمة الشاعرة.

ثانيا- مظاهر النزعة الصوفية في الشعر المعاصر.

والمتأمل لتجارب الشعر العربي المعاصر، يجد بلا شك أن أهم ظواهر النزعة الصوفية في الشعر المعاصر الانسحاب من الحياة، ومعنى هذا الانسحاب « إقصاء العقل بصورة متعمدة عن الأشياء التي يمكن أن تتجاوز حقائقها الظاهرة والشعور الكامل بالتحرر من القيود كافة التي تشعر الإنسان بعبوديته »[viii]، ومشكلة الإنسان المعاصر إحساسه بضيق الرؤية، ولا تتسع رؤيته إلا إذا تجاوز ما وراء أفقه الإنساني، لذا وجد في الرؤيا الصوفية وسيلة للانسحاب من الحياة، وفرصة للتأمل للوصول إلى الحقيقة.

وفكرة الانسحاب من الحياة كثيرة عند شعرائنا المعاصرين، ولعل قصيدة "مذكرات الصوفي بشر الحافي" لصلاح عبد الصبور، من أهم القصائد دلالة على هذه الفكرة، خاصة وأنه يقدم لها بالحديث عن بشر الحافي: « مشى يوما في السوق فأفزعه الناس، فخلع نعليه ووضعهما تحت إبطيه وانطلق يجري في الرمضاء »[ix]، ثم يقول صلاح:

حين فقدنا الرضا
بما يريد القضا
لم تنزل الأمطار
لم تورق الأشجار.
لم تلمع الأثمار
حين فقدنا الرضا
حين فقد الضحكا.
حين فقد هدأ الجنب
تفجرت عيوننا بكا.[x]

يقر الشاعر منذ الوهلة الأولى بضياع كل شيء وفقدان كل ما هو جميل، وهي إدانة ببداية الانسحاب من الحياة، فالإنسان حين يفقد كل شيء حتى الرضا بالقدر لابد أن يعلن عن رفضه للحياة وكل ما في الوجود، فلا الأمطار موجودة ولا الأشجار مورقة ولا الأثمار لامعه، فما جدوى البقاء في هذه الحياة الجرداء الخاوية على عروشها.

وبنوع من الصوفية الصامتة يواصل الشاعر مذكرات بشر الحافي التي تمثل في الأصل مذكراته كفرد عربي معاصر ضاق ذرعا بهذه الحياة وبهذا الواقع الأليم فيقول :

احرص ألا تسمع
احرص ألا تنظر
احرص ألا تلمس
احرص ألا تتكلم
قف
وتعلق في حبل الصمت المبرم
ينبوع القول عميق
لكن الكف صغيرة.[xi]

يعاني بشر عبد الصبور وأولي الرأي الثاقب من واقع يجبرهم على الانتماء المشكل في الفكرين السياسي والإنساني المزيف، وفي المعاناة يحاول أن يجد لنفسه صومعة يفر إليها هربا ولو عن طريق ممارسة الصمت والتعلق بحباله.

وعلى هذا النحو من العزلة والانسحاب من الحياة تستمر مذكرات بشر الحافي لتكون إدانة كاملة ورافضة للإنسان والوجود والحياة، وهي في الحقيقة رؤية صوفية لعبد الصبور تنظر إلى الواقع العفن وتريد أن تتجاوزه إلى الأفق النوراني الأعلى:

الإنسان الإنسان عبر
من أعوام
ومضى لم يعرفه بشر
حفر اللعناء ونام
وتغطى بالآلام.[xii]

إنه انسحاب من الوجود الذي ينضج بالخزي والعار ويتحول فيه الإنسان إلى رموز حيوانية مادية وإلى قوى شيطانية لا يملك صاحب النفس الأثيرية إزاءه إلا الصمت وتمني الموت[xiii]، ما دامت الحقيقة مغيبة في هذا الوجود وما دام الظلم والجور أوقف كل معنى جميل وزرع العذاب والألم في النفوس، ثم إن هذه النظرة الصوفية عند

عبد الصبور فيها إسقاط للماضي على الحاضر، إذ أن مذكرات بشر عبد الصبور أو صلاح الحافي، لا فرق فالزمن واحد والإنسان واحد.

وتتعلق بالظاهرة الأولى بظاهرة أخرى تتمثل في فقدان الشعور بالأنا أو "حضور الشعور الجمعي"، ولا شك في أن التجربة الصوفية تأكيد للوعي ينطوي على فقدان كامل للشعور بالأنا، أو تعني « كل عاطفة صادقة متينة الأواصر، قوية الأصول، لا يساورها ضعف، ولا يطمع فيها ارتياب »[xiv] وهذا ما يعود على المتصوف بالبهجة والسعادة الروحية، فهو يعزف عن ذاته ليستغرق في المطلق الأزلي.

ولقد تعمق الشاعر العربي المعاصر في البعد عن أناه، ونلمح ذلك بشكل كبير في شعر علي أحمد سعيد الذي اهتم بعلاقة الشعر بالتصوف، لا بما كتب من شعر فحسب؛ بل بما قدم في دراساته الأدبية أيضا، وخاصة في ديوانه "مفرد بصيغة الجمع" الذي اقتبس عنوانه من اصطلاح صوفي قديم، إذ يقول أدونيس في إحدى قصائده:

الضياع الضياع...
الضياع يخلصنا ويقود خطانا
والضياع
ألق سواه القناع،
والضياع يوحدنا بسوانا
والضياع يعلق وجه البحار
برؤانا
والضياع انتظار.[xv]

يبتعد أدونيس في هذه المقطوعة عن ذاتيته تماما، ولا يرى الأشياء من خلال (الأنا)، لأنه يعبر عن وجدان الإنسان المعاصر الذي يمل الأشياء الثابتة والمتحركة، خاصة وأن الضياع لم يظل معضلة إنسانية تدفع (أناه) الضائعة إلى البحث عن طريق لتجاوزها، بل غدا شأنه شان المعضلات الوجودية الأخرى بؤرة للخلاص الإنساني العاجز عن إدراك الوجهة الصحيحة التي تبلغه مأمله، وتغيم الرؤى أمامه ويحس الضياع والغربة والألم.

وليس غريبا أن ينطلق أدونيس من رؤية صوفية تنظر بالمفهوم الجمعي لا الأنا الفردي، لأنه يدرك أن « التجربة الصوفية تنطلق من القول أن الوجود باطن وظاهر، وأن الوجود الحقيقي هو الباطن... والواقع أن الصوفية لم تعتمد في الوصول إلى الحقيقة المنطق أو العقل، ولم تعتمد كذلك الشريعة، وإنما اعتمدت ما اصطلحت على تسميته بالذوق، وهو الكشف المباشر الذي يتم عبر حال تتلبس الصوفي فتتبدل صفاته، وتقوده في حركة تتجاوز الشريعة إلى الحقيقة متجهة نحو الكشف عن الله جوهر العالم والفناء فيه، فالتصوف هو شوق الظاهر إلى الباطن وهو حنين الفرع للأصل وعودة الصورة إلى معناها »[xvi].

يضاف إلى الظاهرتين السابقتين ظاهرة صوفية أخرى في شعرنا العربي المعاصر وهي التبصر، أو الرؤية خلافا للظاهر، وقلة من الشعراء من يتمتعون بهذه القدرة على التبصر، لأن الإنسان الذي يخوض التجربة الصوفية يرى

هذه الأشياء من داخل نفسه، ويستطيع أن يشهد الجمال في غير ما يحس فيه البشر جمالا في العادة، وفي قصيدة "أصوات ليلية" لعبد الصبور تنكشف لنا أبعاد هذه الظاهرة خاصة في قوله:

شجر الليل على مفرقنا مال، وأرخى
شعره المحلول في أكتافنا
ثم ألقى ثمر الوجد، وأزهار الكآبة
في مآقينا وفي أكمامنا
واعتنقنا، وغصون الشجر الموحش
حتى دب في أعطافنا
شبق الحزن الذي كل دجى يعتادنا
ثم... ألقانا هنا
جائعات نشتهي، كل مساء، موحش، شجر الليل.[xvii]

إن المرئيات هنا تأخذ شكلا جديدا ينبع من نفس الشاعر، حتى كأنها تتبدى في شكل غير شكلها المألوف، لأنها تمر بتجربة روحية مكثفة تفتح أمامنا مستويات غزيرة، فالشجر والليل والشعر والثمر والأزهار والغصون وغيرها من المرئيات ليست تلك الأشياء التي ألفناها، ولذا يتوجب على المتلقي أن يغوص في أعماق نفسه ويحاول أن يتمثل التجربة الصوفية للوصول إلى دلالتها الحقيقية التي صيرتها بصيرة الشاعرة إلى خطرات شعورية.

ونجد مع التبصر ظاهرة صوفية أخرى تقترن به، وهي القدرة على النفاذ إلى المستويات الأعمق في النفس البشرية وفي الكائنات، وهي نوع من الاستبطان الواعي، وخاصية التأمل جزء متأصل في التجربة الصوفية.[xviii] ولا يوجد في شعرنا المعاصر من برزت عنده هذه الظاهرة مثل خليل حاوي ومحمود درويش، وإنها لتسهم إسهاما كبيرا في الغموض الغالب على شعريهما، إذ يقول درويش في قصيدة "الخروج من ساحل المتوسط":

لا توقفوني عن نزيفي
ساعة الميلاد قلدت الزمان، وحاولتني
كنت صعبا —حاولتني
كنت شعبا —حاولتني مرة أخرى.
أرى صفا من الشهداء يندفعون نحوي، ثم يختبئون
في صدري ويحترقون.[xix]

إن الذات في لحظة الاستغراق هذه تتوحد مع العالم الذي تنظر إليه، لأنها تنظر إليه بعين الفن بما هو شكل ولون، ولا « تنظر إليه على أنه ذاته العادية فلا تعود الصورة أو المنظر أو الواقعة الجمالية شيئا خارج الذات، بل

يصبح الاثنان كيانا واحدا، ويمحي الزمان والمكان ويمتلك الذات وعي واحد.»[xx]، فالشاعر في تأمل معاناة الإنسان يحاول الوصول إلى أغوار نفسه التي ينعكس عليها الواقع الأليم الذي يرفضه.

إن الخطاب الشعري العربي المعاصر، وهو ينحو منحى صوفيا، يعتمد على خلفية عقدية تتأسس من منطلق اعتبار الصوفية « من علوم الشريعة الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. »[xxi]، وعليه فإن الشاعر المعاصر يعيش حالة جديدة من المفارق الوجدانية بين زمن وزمن آخر، وإن كان قد عاش في السابق تجاربه مع الحس عندما انفتح على مباهج الوجود.

والحقيقة أن فكرة وحدة الوجود من الظواهر الصوفية اللافتة للنظر في شعرنا العربي المعاصر والتي كانت أساسا في فكر ابن عربي وإن كان لا يريد بها وحدة وجود مادية، وإنما وحدة وجود مثالية أو روحية تقرر وجود حقيقة عليا هي الحق الظاهر في صور الموجودات، ويعد وجود العالم بمثابة الظل لصاحب الظل.

لهذا يحرص ابن عربي على القول بأن « الحق منزه مشبه معا، فتنزيهه في وحدته الذاتية ومخالفته للحوادث، وتشبيهه في تجليه بصورها، وتختلف درجة تأكيده لجانب التنزيه أو التشبيه حتى تكاد تظنه ماديا، وقد تغلب عليه العاطفة الدينية فيتكلم بلسان التنزيه وينكر كل مناسبة بين الله والمخلوقات »[xxii] والشاعر المعاصر ذي النزعة الصوفية لم يكن مطالبا بحل التناقضات في هذه النظرية، ولكنه يستشعر الوحدة بين الخالق والمخلوقات أو كما يقول عبد العزيز المقالح:

أغمضت عيني كنت في يدي
وكانت الأرض معي، وكانت الأنهار
والشمس والأقمار
تغسلني من الداخل
تغسل الوجوه في العيون
تغسل وجه الليل والنهار
حين فتحتها كان الفراغ قاتما
وكان كفي خاويا... وكانت الديار
الله كان حين كنت- موجودا-
وكانت الفراشات تزين الحقول والجبال. [xxiii]

ونرى هذا التوحد بشكل آخر عند صلاح عبد الصبور الذي نجد في شعره أمثلة كثيرة لنزعة التوحد الصوفية بالفهم المعاصر، ولعل في قصيدة "الإله الصغير" ما يكشف أبعاد الظاهرة، فهو يقول:

كان لي يوما إله وملاذي كان بيته

قال لي إن طريق الورد وعر فارتقيه
وتلفت ورائي وورائي ما وجدته
ثم أصغيت لصوت الريح تبكي فبكيته
ذات يوم كنت أرتاد الصحاري كنت وحدي.
حين أبصرت إلهي أسمر الجبهة وردي.
وإلهي كان طفلا وأنا طفلا عبدته.[xxiv]

ولما كان الشعر جزء من الواقع، وهو يتقدم بتقدم الزمن ويساير الحياة الاجتماعية، فإن له صلة بالتحولات الاجتماعية والسياسية والفكرية التي حدثت في الستينيات وما بعدها، هذه التحولات التي أفرزت نوعا من الإحساس العنيف بالقلق والغربة في هذا العالم الواقعي، والذي يمثل في الحقيقة مظهرا من مظاهر النزعة الصوفية التي رافقت الشاعر المعاصر في سعيه الدائب للوصول إلى الحقيقة التي ينشدها، شأنه في ذلك شأن الصوفي الذي لا تهدأ نفسه المتشوقة إلى الخلاص من سجن المادة والزمن وفي هذا يقول بدر شاكر السياب:

وتلتف حولي دروب المدنية:
حبالا من الطين يمضغن قلبي
ويعطين، عن جمرة فيه، طينة،
حبالا من النار يجلدن عري الحقول الحزينة
ويحرقن جيكور في قاع روحي
ويزرعن فيها رماد الضغينة.[xxv]

ينزع السياب منزع المتصوفة، فتتوحد ذاته الشاعرة بعالم المدينة المأساوي ويستبد به القلق ويعتصره، وتتحمل روحه المعذبة المعاناة في سبيل رفع رماد الضغينة عن مدينته المعذبة، وإذا كان الخلاص عند السياب منبثقا عن علاقة الاندماج بالواقع المأساوي، والذهول عن الزمن في تلك المعاناة المستمرة، فإن إحساس القلق والغربة عند أمل دنقل تحول إلى عالم من الموت، أو تجسيدا له، فيقول:

عندما يبتلع (الكورنيش) أضواء الغروب
تسعل الظلمة فيه والبرودة
يحمل الجوع إلى العار... وليده
كلمات...
ثم تنسل من البرد... لدفء العربات.
والمصابيح: شظايا قمر... كان يضيء.
حطمته قبضة الطاووس فوق الطرقات
ثم أهدته إلى النسوة... كي يصلبنه فوق الصدور

يتباهين به... وهو رفات!
كلمات... كلمات [xxvi]

إن القلق والحزن عند أمل دنقل ليس حزنا عاديا أو ذاتيا، إنه حزن وقلق صوفي، ولهذا تنطوي فيه فترات الزمن وتتجسد (الغروب، الظلمة، البرد، الدفء)، ويمتزج بالحياة والموت والانبعاث ويقترن بالحلم والوحدة والحقيقة والوهم، إنه حزن الفرد العربي المتحير على واقعه المأساوي المحكوم بالموت في كل آن، والمحفوف بالعبثية واللاجدوى.

ونجد هذه الخاصية الصوفية ماثلة في كثير من الأشعار العربية المعاصرة يضيق بنا المقام لسردها ويأتي في مقدمة هؤلاء كل من: عبد الوهاب البياتي، بلند الحيدري، عبد العزيز المقالح، أدونيس، نجيب سرور، محمود درويش... وغيرهم ممن يظهر رفضهم لهذا الواقع الذي يعيش فيه الإنسان ويحس إحساسا عنيفا بعدم الانطلاق والتحرر، إذ الأغلال تكبله من كل حدب وصوب، أغلال الزمان والمكان والمادة واللاجدوى وكل ما يشده إلى التراب وحمأة الرذيلة.

ولما كان القاسم المشترك بين الشعر والتصوف إضافة إلى تقاسمهما للغة الرمز، هو « استخدام الصوفي لغة الشعر للتعبير عن رجائه ووجده العارم، واستخدام الشاعر منهج الذوق الصوفي منارا لإدراكه ووعيه»[xxvii]، فإنه من الطبيعي أن يظلل الغموض لغة الشعر العربي المعاصر، وما يتصل بلغتها من رموز تتصل بالباطن ولا تعني شيئا ذا قيمة في المدلول الظاهري للألفاظ.

ويأتي بدر شاكر السياب في مقدمة الشعراء العرب المعاصرين ذوي الاتجاه الغامض الذي تمتزج فيه الصوفية بالرمزية لاعتمادها على الجزء المبهم الغامض في ذات الإنسان، كما في قصيدته "مدينة السراب":

تر امت السنون بيننا: دما ونارا
أمدها جسور
فتستحيل سور،
وأنت في القرار من بحارك العميقة
أغوص لا أمسها، تصكني الصخور،
تقطع العروق في يدي، أستغيث: آه يا وفيقه
يا أقرب الورى إلي أنت يا وفيقه
للدود والظلام.[xxviii]

يتجاوز الشاعر في هذه المقطوعة الدلالة اللغوية للألفاظ ويعتمد على مدلولها الغيبي في فهم العلاقات أو ما يسمى بنظرية التراسل correspondances، كما اعتمد على الموسيقى اعتمادا كبيرا في الإيحاء بالمعنى، شأنه في ذلك شأن الصوفي في حلقات ذكره حين يغوص في نشوة استغراق جمالي.

خاتمة:

هكذا نرى أن النزعة الصوفية بمعناها الإنساني العام، أو بمعناها الإسلامي الخاص قد تجلت في شعرنا العربي المعاصر في مظاهر شتى، وهي تحتاج إلى تتبع دقيق لا يكتفي بظواهر الأشياء، فلا يكفي إشادة أحد الشعراء المعاصرين بالحلاج أو النفري أو السهر وردي أو ابن عربي أو ابن الراوندي لتحكم بوجود النزعة الصوفية في شعره، كذلك لا يكفي وجود بعض المصطلحات الصوفية في أشعار أحدهم للتدليل على نزعته الصوفية، لأن الأمور الظاهرة غير كافية، وإنما المطلوب هو التعمق في مضامين أشعارهم وتمثل ما فيها من أشكال خفية للأثر الصوفي.

والحقيقة أن الحديث عن تجربة التصوف عند الشعراء المعاصرين لا يكون إلا من خلال الواقع الاجتماعي والثقافي والعقدي السائد في الأمة العربية، هذا الواقع الذي تجسدت فيه تناقضات عديدة واتسعت لتشمل مستويات معرفية متضاربة ظلت هي المحور الأساس لصوفية الشاعر المعاصر الذي جاءت استجابة لهذا التضارب، فصوفيته في أغلبها ثورة وتمرد ورفض للواقع المأساوي، أو قلق وشعور بالغربة والاغتراب وتمني الموت دون الركون إلى هذا الواقع والرضا بالسجن والقيد والعبودية، ولا مفر إذا إلا بثورة الإنسان المعاصر على نفسه، وعلى واقعه، وعلى كل ما يقيد انطلاقه وحريته، كل ذلك من أجل التغيير والتبديل في هذا الوجود.